

## الكذب عند الأطفال

بقلم السيدة زاهية مرزوق

يتطلب المجتمع منا معرفة حقنا من حق غيرنا، وكذلك يتطلب منا الأمانة في سرد الحقائق . ونحن بدورنا نتطلب من الطفل مثل ما يتطلبه منا المجتمع ونحاسبه كما يحاسبنا المجتمع . ومما لا جداء فيه أن الطفل يكتسب صفة الصدق أو الكذب من بيئته التي تربى فيها . فإذا نشأ في بيئة عمادها الصدق والأمانة كان صادقا أميناً وإذا نشأ في بيئة عمادها الكذب والمراوغة وعدم الوفاء بالوعد كان كاذبا مخادعا ، فهو يتخذ من أعمال مخالطيه مقياسا لأعماله ؛ فإذا أصاب هؤلاء أصاب مثلهم وإذا أخطأوا كان هو أول الخاطئين ؛ وكيف ننظر من الطفل الصدق في القول والإخلاص في العمل وأمامه والداه يكذبان لكل مناسبة وبغير حساب ؛ فيرى الوالد يكذب حينما ينكر وجوده بالمنزل تخلصا من ضيف ثقيل . أو تهربا من الدائنين ، ويرى الأم تكذب حينما تنكر عمل شيء خوفا من غضب الوالد أو انتقاد الناقدين . ويراها الاثنان يكذبان حينما يعدانه بشيء ولا يبران بوعدهما أو حينما يمتنانه بنزهة شيقة في حين أنه مسوق للطبيب . نفعل كل ذلك أمام الطفل ونتصور أن إدراكه لا يتسع لكل هذه الأمور وفي الحقيقة إنه يدرك كل ما يدور حوله من هذه الأكاذيب والمراوغات وأن هذه العقلية الصغيرة لا تتغفر لأحد التلاعب بها والضحك عليها ولو في أنفه الأمور

ومن الخبر لنا أن تتوخى الصدق مع طفلنا في كل أمورنا ومعاملتنا حتى يعرف قيمة الصدق والأمانة في قوله وعمله ، وحتى لا نجنى عليه جناية تعليمه الكذب والمراوغة والنفاق . وأهم صفة أخلاقية يجب أن نشدد في غرسها في الطفل هي الصدق فإن هذه الصفة تؤثر في جميع الصفات الأخرى ، وتستقيم بالمرء حتما إلى ما نشده له من دماءة الخلق وحيد الخصال .

سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم " أي صفة تريد أن أتجلى بها ؟ قال الصدق " فقال الرجل في نفسه " هذا أمر ما أهونه " وأخذ عهدا بالألا يكذب . وعند ما خلا إلى نفسه وحدثته بإتيان المنكر تذكر وعده للرسول بالألا يكذب عليه وقال لنفسه ، وكيف يكون الموقف لو سئل عن معصية أراها ؟ وهكذا ظل يزن بين الاستمراء والهز بالوعد حتى تغلبت الفضيلة عليه وصار من الصالحين .

وكثيرا ما تقودنا مصالحنا الذاتية إلى معاقبة الطفل على قوله الصدق ، فالأم التي تضرب طفلها لأنه أفضى سرا للوالد كانت تريد إخفاءه عنه ، أولأنه اعترف للزائرين بوجودها بالمنزل رغم إنكارها ، أولأنها لقتته حكاية كاذبة فرواها بالصدق . هذه الأم إنما تجنى على طفلها جناية

لا تعرف مقدار أثرها في مستقبله وأخلاقه وكذلك الوالد الذي يعاقب طفله على الصراحة في القول والجرأة في الحق فإنه يقتل فيه أعز صفة في أخلاقه . حدث أن طفلا كان صريحا في بدء نشأته ، ولكن هذه الصراحة كثيرا ما كانت تؤلم والدته وكثيرا ما سببت له الضرب والايذاء ، وبعد قليل علمته التجارب أن الصدق غير مرغوب فيه ، وأن التمسك به لا يعود عليه إلا بالسخط والعقاب فأعرض عنه وبدأ بتجربة الكذب في كثير من الأمور فبدلا من اعترافه مثلا بكسر الإناء كان ينكر كل علم له به ، فتمم والدته الخدم وتنزل بهم العقاب على مرأى منه وهو يعلم تمام العلم أنهم أبرياء ، وتطاول في التجربة حتى انغمس في الكذب وصار يستخدمه لا تخلصا من العقاب فقط ، بل في اختلاق ما يحلوه من أكاذيب إذا جرت مغنا له ، فكان يدعى مثلا أن المدرسة كلفته بإحضار أشياء وهمية ويأخذ ثمنها لنفسه ، وكان لا يتورع عن الكذب والوقعة بين من حوله ووصل به الحال حتى إلى الاختلاق على والديه والوقعة بينهما بدرجة ظهر خطرهما على علاقتهما التي توترت أوصالها وانقضت عراها .

وربما كان للطفل بعض العذر فيما يصوره له خياله من أكاذيب ، ففي إحدى مراحل نموه تمر عليه مرحلة يختلط عليه الخيال بالحقيقة ، فمثلا يتصور أنه رأى عفريتاً أو ماردا في الطريق ، وإذا ساعدته الظروف اشتد هذا التصور في مخيلته لدرجة يعتقد بها أن ما رآه حقيقة لا ريب فيها ، فلا يجد نفسه إلا لاهثا من الجري ليروي حكايته المحبوة الأطراف لأول من يصادفه ، فاذا وجد إعراضا من السامع عن تصديق حكايته التي لا أصل لها إلا في خياله فإن ذلك يؤا به في شعوره ، وأما إذا وجد إقبالا وتشجيعا على سماعها فإنه يستمر في سرد تفاصيل هي أبعد عن الخيال من الحكاية نفسها ، وسرعان ما يحلوه سرد الأفاصيص الكاذبة والتمادى في الاستهتار بقول الناس .

وربما يقول البعض إن هذه الأكاذيب لا ضرر منها ، إذ ما الضرر الذي ينتجه الطفل الذي يأتي فيروي حكايات تافهة لا تقدم ولا تؤخر ولا تؤثر في كنه الحوادث أو في علاقات الناس بعضهم ببعض ؟ ولكن كيف تكون النتيجة لو أن هذا الطفل استعذب هذه الأكاذيب والاختلاقات وتمادى في التمسك فيها وتوغل في أساليبها وتركها تطفئ على كل أعماله وتفكيره ؟ لا شك أن النتيجة تكون وبالا عليه وعلى مستقبله وخسارة كبيرة على المجتمع . كذلك يجب ألا نصدم الطفل في أول الأمر بأنه كاذب في تخيلاته إذ بذلك نبتط عزيمته عن التفكير والتصوير ، ونقتل فيه ملكة الخيال .

وما هذه القصص الخيالية التي نسميها من الطفل إلا تمنياته وأمانيه يحكيها خياله على حسب ما يتصور ويمتني ، ويدفعه شغفه بتلك الأمانى إلى الحلم بها حتى في يقظته والتحدث بها للناس كأنها الحقيقة بعينها .

والواجب في هذه الأحوال أن نأخذ من الأمور أوسطها فلا نشجع الطفل بتصديقه المطلق لحكاياته، ولا نصدمه دفعة واحدة بتكذيبها، بل نسمعها منه على علاتها ثم نناقشه الحساب فيها ونظهر له أوجه الضعف في محتوياتها ونبين له ما كان منها معقولا أو غير معقول ثم نتردد به حتى يحكم بنفسه على نفسه ويستخلص ما يصح أن يكون. ويجب أن نساعد في التفريق بين الخيال والحقيقة في حكاياته المختلفة.

ويمكن للوالدين استغلال أحلام اليقظة هذه لمصاحبة الطفل إذا شجعه ومهدائه الطريق المستقيم إلى التعبير عما يحول بخاطره من خيالات وتصورات على شكل معقول يفيد في تكوين عقله وشخصيته.

وقد اختلف المربون في كيف تنقل الأخبار المخزنة للاطفال، وهل يكون ذلك بالصدق أو بالكذب. وهل يتفكر للأم مثلا تحت ضغط الظروف القاسية الكذب على طفلها تحاشيا صدمة الأخبار؟ حقيقة نذرا ما تبعد ظروف مؤلمة تضطر الأم معها الى الكذب على نفسها أو انتبا خوفا من عواقب الصدمة. ولما كان ذلك يكون نتيجة ذلك اضطرابات نفسية شديدة في الطفل. كما حدث للطفل الذي تم في ذلك أثناء تغيبه عن المنزل في زيارة بعض الأقارب وبعد رجوعه لم يجد والده كعادته فسأل الكذبة الوالدة عليه خوفا من صدمة الخبر، ولكنه لم يلبث أن أخبره أصدقوه انه توفي، ودره انه كلمة الموت بأشع معانيها فرجع الطفل الى أمه يلح عايبا في السؤال ولما أنكرت فاجابها بخبر وفهمها أنها هي التي أخذت أباه منه فدفعته في بحر ضيق لا يأكل فيه ولا يشرب واصبح يشك فيها ولا يثق بها ظنا منه أنها يمكنها دفعه هو الآخر واضطربت حائنه النفسية وسقم جسمه على مر الزمن ولم تفهم الأم ما انحدر اليه طفنها من سوء الحال إلا بعد أن بدأت الى العيادة النفسية وشرحت لها حقيقة الموقف. أما الطفل فقد عوَّج من هذا الشعور الذي تولاه بشرح بسيط لعملية الموت وكيف أنها ظاهرة طبيعية بين البشر لا يمكن لأى فرد أن يفر منها.

وقد يندفع الطفل في خطأ أو ورطة يصعب عليه الخلاص منها فيضطرب الى الكذب كما حدث في حالة الطفل الذي تداين من أجل استكمال مجموعة صور الشكولاته، وكان عظيم الأمل في رد هذه الديون بمد حصوله على الجائزة الكبرى، ولكن آماله لم تتحقق وكثر عليه ضغط الدائنين حتى اضطرب الى استعمال ثمن الكتب التي طلب منه والده توصيله للمدرسة.

ولما شددت عليه المدرسة في طلب الثمن لم يتمكن من تقديمها واضطر للهروب خوفا من عقاب المدرس. ولما ذهب لانتزاع زعم أنه كان في المدرسة طول يومه كالعادة. ولما ذهب للمدرسة في اليوم التالي ذكر أنه كان مريضا بالأمس وأنه ما أتى إلا لعرض نفسه على الطبيب، وهكذا تورط في ساسة هذه الأكاذيب حتى كادت تقضي على مستقبله وأخلاقه ولم ينقذه منها إلا اكتشاف الوالد لأمره صدفة وعمله على تلافي نتائج فعلته.

وقد تكون الغيرة والحسد أو حب الانتقام سببا قويا يدفع الطفل الى القلدح في سيرة زملائه لأولياء أمورهم والصاق جميع اتهم الباطنة بهم كي يتناول العقاب الذي يشفى غليله .  
مرت على في الشهر الماضي حالة طفل اتخذ الكذب على رفاقه ولزم فيهم لندويم شغله الشاغل ، فكان يبجأني محادثة أهل الطفل بالثغور ويقول لهم مثلا إن أبكم فلان يأتي من المعصيات كذا وكذا وهو الآن مع فلان يقومون بمنك الأعمال . وذا جازت هذه الحيلة على أهل الطفل أعطوه ما يستحق من العقاب الذي بطر له لطفل الكاذب .

ومن الأطفال من يكون قليل النجاح في حياته المدرسية فيستعاض عن الحقيقة بالخيال ليشبع رغبته في النجاح ، فراه يحاول إظهار نفسه في ميدان لدرس أو اللعب فيدعى أنه البطل العظيم في هذا أو ذاك ، ويحلس بين زملائه فيحطب فيهم بما أتاه من ضروب الفروسية والشطارة المدرسية مما يصوره أنه جاز على عقولهم وروع من قيمته في أعينهم . وراه يذهب إلى أمه فيقص عليها أخبار نجاحه وتفوقه في المدرسة ويذكر لها كيف أن مدرسه ذكروا اسمه بالفخر أمام جميع التلاميذ ، وكيف أنه كان الأول في كل شيء وكيف أنه عمل كذا وكذا من شتى ضروب الشطارة والفروسية وهكذا يطاوعه خياله فينسج منه حالة الفجر والنبوغ لنفسه ، وكلما أظهر السامعون سرورهم من هذه الأخبار كلما زاد هو إعنا في اختلاقه .  
وأحسن علاج مثل هذه الحالات هو البحث عن مكان القوة في شخصية الطفل ومواهبه واستغلالها استغلالا يشعره بنجاحه ولا يكلفه فوق طاقته فإن أكبر جزءا لمثل هؤلاء الأطفال هو ما ينالونه من نجاح ولو طفيف في شيء من أعمالهم .

وربما استعمل الطفل الكذب لطلب عطف من حوله عليه وخصوصا اذا كان قد حرم من ذلك العطف في مستهل حياته فراه يحنق الأم والتوحيح أو يدعى اليتيم والمسكنة أو الذلة والمهانة في المنزل أو المدرسة ، وكثيرا ما نجد هذا النوع من الكذب في دور المراهقة ، إذ أن الشاب في ذلك الوقت أشد شعورا بحاجته الى العطف والمساعدة وحام انتباه من حوله .  
ومن العادات الشائعة في الوالدين أن يدققوا كثيرا في استجواب الطفل عن مخالقاته ويضيقوا عليه الخناق حتى يضطر الى الكذب هربا من هذا الموقف ، ولو أصاب الوالدان لوضعا ههما في معرفة الأسباب التي دعت الى المخالفة وعملا على ازالة هذه الأسباب حتى لا يضطر الطفل للترول ، استواء الخلق الى درجة الكذب .

وصفوة القول ان عادة الكذب من أخطر العادات وأشدّها أثرًا في حياة الطفل ومستقبله ، ولذلك يجب علينا جميعا محاربتها بتفهم أسبابها ودوافعها والعمل على ملاحقتها ، ويجب أن نفهم كذلك أن ما يصل اليه الطفل من الأمانة والصدق إنما يتوقف على مقدار ما يحصله من تجاربه الخاصة ومن البيئة التي يعيش فيها .

زاهيه مرزوق